الحياة الأدبية فى بغداد

بقلم عبد الوهاب الأمين

ر :

ذكرنى مقال الأستاذ « على الطنطاوى » عن الحياة الأدبية ، دمشق بحياتنا الأدبية فى بغداد ، وحبب لى العزم على دخول ضمار ، وأغرانى بالبحث عن التراث الأدبى الذى خلفته عصور ذهب وعصور الزوال لعاصمة الرشيد !

وليس جديداً عندى مثل هذا البحث فقد كنت أردده فى رص عديدة سابقة ، ولكن صدى هذه البحوث لم يكن يبلغ لآذان ؛ أما الآن فقد رغبت أن يكون ذلك فى « الرسالة » لقراء ، وهى المجلة المقروءة فى كل قطر عربى ، رغبة منى فى إطلاع إخواننا فى بقية الأقطار على أن سوء الحال لا يمكن أن يبلغ بالأدب ما بلغه فى بغداد !

قبل عشر سنوات

لو أتيح للقارئ الكريم أن يتصفح الصحف والمجلات قبل عشر سنين لما فاته أن يلحظ فيها طيف اليقظة الأدبية وهى فى مبدئها ، ولرأى من كثرة ما ينشر فى الصحف حينذاك من الشعر على الأخص ، ومن بقية الفنون الأدبية ، وإن كانت بصورة بدائية ، روحاً أدبياً يبشر بمستقبل لا بأس به ، ولكان فى وسعه أن يتجوز فى تسمية تلك الحركة نهضة أدبية قد يأتى عليها زمن تصل فيه إلى النضوج فتؤتى أكلها أدباً جديداً وأدباء مبدعين !

غير أن حقيقة الواقع ليست كذلك ! فها نحن أولاء الآن قد خسرنا حتى تلك الحركة البدائية البسيطة ؛ وقد ماتت كل المحاولات التى كان القصد منها بعث الروح فى الأدب العراقى فى كل مناسبة عرض لها بعض الذين خيل إليهم أن فى العراق تربة صالحة لمثل تلك المحاولات

وقد اشترك كاتب هذه السطور وساهم فى إنشاء بعض الصحف الأدبية فكانت تنقضى الواحدة منها تلو الأخرى ، فلما يئس وانزوى وترك العمل أخذ بعضهم يلومه ، وزاد اللوم فى بعض الأحيان حتى بلغ التعنيف ! كأن من واجب الأديب أن يستقل بالتضحية وحده ، فإن أحجم أو قصر أو تردد فقد أجرم !

وقد كان سبب ذلك الهمود والموت الأدبى فى جميع الحالات واحداً لم يتغير ولم يتأثر بتطورات الزمن . فكأن هذا النبات لم يخرج من هذه الأرض ، وكأن فى طبيعة كليهما ما ينفره من الآخر

فما هى علة هذه الرجعية ؟

جناية السياسة والصحافة على الأدب

لست أقصد بالسياسة العمل السياسى ، فإن ذلك خارج عن بحثى كما أنه خارج عن صلاحيتى ! وإنما أقصد أولئك الأشخاص الذين بدأوا حياتهم أدباء ثم انقلبوا سياسيين ، ومقدار ما فى هذا العمل من الجناية على الأدب ! وبعبارة أدل : أولئك الأشخاص ذوى الأطماع السياسية الذين لم تمكنهم شخصياتهم من الخوض فى غمار السياسة رأساً ، فقدموا لأطماعهم بالاشتغال فى الأدب واضعين تلك الغاية نصب أعينهم ، فلما ظهرت أسماؤهم على الأفواه تركوا الأدب وانصرفوا إلى السياسة !

هؤلاء أساءوا إلى الأدب أولاً وإلى السياسة ثانياً ... أساءوا إلى الأدب لأنهم لم يخصوه بنشاطهم ورغبتهم وإنما جعلوه مطية لأطماعهم ، وأساءوا إلى السياسة لأنهم جعلوا فيها هذه السابقة

ومن هنا يتبين السبب فى تلك النهضة التى حسبناها « أصلية » (Original) وما كانت فى الحقيقة إلا وسيلة بعض المرتزقين من حملة القلم ؛ ولو رجعنا إلى الأسماء التى كانت تذيل بها قصائد الصحف والمجلات قبل عشر سنين ، ومقالات ذلك العهد ومحاضراته ، لوجدناها من أضخم الأسماء وأعلاها فى عالم الوظيفة والسياسة الآن

وقد جرى ذلك على الصحف اليومية ، فإن كل صحيفة صدرت فى العراق كانت فى مبدأ أمرها خالصة لوجه الأدب أو تخصه بأكبر عناية ، فأصبحت كل الصحف تقريباً لا تنشر القطعة

الأدبية أو القطعة الشعرية إلا فى الأسبوع أو الأسبوعين مرة !
وقد كانت جريدة « البلاد » — وهى كبرى جرائد العاصمة — فى أول مبدئها تخص « الأدب » بثلث صفحاتها يومياً ، وكانت تستكتب الأدباء والشعراء وتنشر لهم وتدعو لأدبهم ، وكانت وقتذاك تصدر فى ست صفحات فقط ، والآن بعد أن زيدت صفحاتها إلى الثمانى فقد تركت الأدب مرة واحدة ، ولم تعد تنشر شيئاً منه إلا فى بعض المناسبات القاهرة

وكذلك قل فى الصحف الباقية اليومية منها والأسبوعية ، فانك لن تجد فيها إلا ما هو أقرب إلى الأدب السياسى فى بعض الأحيان منه إلى الأدب الخالص

ومما يؤلم ويستفز النفس أن الصحف فى العراق لا تتكبد فى نشر الأدب شيئاً مادياً ، بل كل ما ينشر فيها تقريباً « أدب تبرع » وليس أدباً مأجوراً ، وهو بذلك أقوم وأفيد بطبيعة الحال من ذلك الأدب الذى تستنطقه المادة ، ولكن أصحاب الصحف « الأدباء » لا يكلفون أنفسهم عناء الاستكتاب ، بل قد وصل الأمر بهم إلى الاقتصار على الأخبار والأمور السياسية وإهمال الناحية الأدبية بالمرة !

وهذا ما يثبط عزم الأديب العراقى ، ويفت فى عضده ويكسر من خياله وهمته ، فهو لا يخسر التشجيع والتعضيد فقط ، بل عليه أن يجتاز الصحافة اجتيازاً ، وفى ذلك ما فيه من المغامرة والخسران ، فان من البديهى أن مهمة الصحافة هى التمهيد للأدب والدعوة له وتقديمه ، لا الوقوف فى وجهه وتثبيط عمله بطريق غير مباشر !

المؤلف والناشر

أكثر ما ينشر فى بغداد بل كله كتب مدرسية غير مستكملة حتى الشروط المطلوبة فى مثل هذه الكتب ، وأكثرها مترجم ومقتطع من الكتب الغربية ، وهى تبدل حسب مناهج التعليم كل سنة ، وفى بعض الأحيان فى أقل من السنة ! ولو استثنينا بضعة كراريس فى المساجلات الأدبية كالسهام المتقابلة ، وبضعة أقاصيص ابتدائية للأستاذ محمود أحمد ، كمصير الضعفاء وما اليها ، فلن تجد كتاباً أدبياً نشر فى السنين الأخيرة غير لب الألباب للسهروردى ، والمجمل فى الأدب العربى لمحمد بهجة الأثرى وتاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوى !

هذا كل ما هنالك !

وفى هذا كل معانى الفقر ! وإنه ليجرح عزة هذه الأمة وكرامتها أن تفتقر هذا الافتقار من الأدب الذى هو قوام الحياة وإنه لأقطع دليل على أن هذه الخلائق لم تستوف ضرورات الحياة ولم تصل بعد إلى إدراك معانيها وتشوفها ، وأنهم — بأدبهم — يعيشون كلاً على غيرهم !

فليس هناك إذن لا « مؤلف » ولا « ناشر » ، وإن وجد أحدهما فليس بينه وبين الثانى تفاهم ، وإن وجد كلاهما فانهما يكونان وقتئذ أقرب الى المرابين منهما الى المشتغلين بالمعنويات والخدمة العامة

والمطبعة العراقية فقيرة الى حد مزر ، فهى لا تزال على نحو المطابع قبل عشرين سنة ؛ وهناك جريدة يومية كانت تطبع بمطبعة تدار باليد الى زمن قريب ؛ وليس هناك من نوع اللينوتايب غير واحدة فى مطبعة الحكومة ! وبالطبع ليس هناك « روتغراف » أو شبهه ! ومن هنا نعرف سبب اقبال القارىء العراقى على الجرائد المصرية المصورة ، إذ ليس فى العراق جريدة أو مجلة مصورة !

القارىء

يتذمر أصحاب الصحف من مشكلة « القراءة » وهى آفة باعة الصحف يتفقون وبعض القراء على السماح لهم بتصفح جميع الصحف اليومية لقاء أجر زهيد يستعيضون به عن شرائها وأن الصحفيين بهذا « الداء » كما يسمونه يلاقون أشد العنت والارهاق والعسر فى تحسين صحائفهم ! ولا أكذب القارىء أنى شهدت مرات عديدة قسماً من المشتغلين بالصحافة اليومية يتبعون هذه الطريقة سراً وجهراً ، وذلك لأنهم يجدون من الصعب منح الصحيفة العراقية ثمناً لأنها فى الحقيقة لا تساويه وهذا إقرار مزر لا يجد الانسان معه إلا الوقوف مكتوف اليد

وليس من الحق لوم القارئ العراق وحده ، فان هـــذا الشخص الذى لا يسخو على صحيفته بثمنها يبذر فى شراء الصحف المصرية اليومية منها والأسبوعية والشهرية تبذيراً، فهو يشترى الصحيفة المصرية اليومية بضعف ثمن الصحيفة العراقية ! ولا يبخل على المجلة المصرية بثمن عددها الذى قد يبلغ فى بعض الأحيان ثمن اشتراك نصف سنة فى مجلة عراقية !

فالجلى من هذا أن القارىء العراق لا يضمر العداء لصحيفته، وأن الأديب العراق لا يحجم عن تغذيتها ، بل الذنب فى كل ذلك هو شىء من سوء التفاهم القائم على اهمال مصلحتيهما . فالصحفى يريد التشجيع بدون مقابل ، والقارىء يريد التحسين بدون مقابل ، وكلاهما لا يحرك ساكناً فى دفع هذا « المقابل »

خلاصة

إذن فالأدب على أسوأ أحواله فى بلاد الرافدين ؛ وبغداد التى كانت فى وقت مضى منبع الحكمة والأدب والشعر تنتظر بريد الأسبوع لتتلقف الصحف المصرية تلقفاً ، وتغذى حاجتها من الأدب المصرى ، حتى لقد يعلم القارىء العراق عن أحوال مصر الداخلية والخارجية ومن شخصياتها الكبيرة ما لا يعلمه عن أمور العراق الداخلية وما يتصل بمعاشه وحياته ! وحتى بلغ الأمر بنا أن تعودنا الاطلاع على ما يخص العراق من مصادر خارجية ، كأن ليس فى البلد صحافة وصحفيون ، وكأنه لا يعيش لأهله ، ولا يعيش أهله له !

فان كان الأستاذ « على الطنطاوى » قد همه ألا تكون فى « دمشق » حياة أدبية ، فلست أجدنى إلا مضطراً إلى زيادة همه ! فاننا فى بغداد ننظر إلى دمشق بعين التطلع ، وننتظر أن يصلنا منها ما يروى أرواحنا العطشى إلى الأدب ! وإن كان حضرته ينعى عليها هذا الخلو والاقفار ، فماذا سيقول عن عاصمة الرشيد ؟

لو كان الوقت والمجال يسمحان بالتبسط فى شرح بعض الأمور التى تتعلق بالحياة الأدبية فى بغداد ، كما نسمى هذا الموت تجوزاً بالحياة ، لأطلعت القارىء على أحوال منه قد لا تسره ، ولكنى لا أكون بذلك إلا كالكاشف عن جيفة ! فشكراً لضيق الوقت والمجال على حسن صنيعهما !

(بغداد) عبد الوهاب الأمين

الرســــالات

للسيدة وداد سكاكينى

أتى على الانسان حين من الدهر كانت تعبث به الأحداث ، وتدور عليه الأفلاك ، وهو فى شرق الأرض تسوده الفوضى والجهالة ، ويقوده الظلم والطمع ؛ فكان كل امرىء ينتبذ مكاناً يحميه ويركن إليه هرباً من بطش فرعون وطغيانه الجارف

فى ذلك العهد المظلم كانت امرأة مسلوبة الأمان ، مشبوبة الفؤاد ، تسير إلى جانب نهر زاخر ، حاملة وليدها ، حائرة فى خطواتها ، فأوحىَ إليها أن تلقيه فى اليم ، وهى مطوية الحنايا على أمل باهر ووعد أكيد . . . ثم يأتى عهد يكون فيه موسى كليم الله ورسوله

حمل هذا النبى رسالة ربه إلى بنى إسرائيل ، فانجلت غواشى الذلة عن عيونهم الدامعة ، وتجلت لهم الحقيقة البارعة ؛ لقد أنقذهم من جور الفراعنة ، وأهدى إليهم الأمن والحرية ؛ فتمت كلمة الله فى أول دين هبط على الطور

ثم غبرت عصور وتعاقبت أحقاب ، فاذا الرومان يعيثون فى الأرض فساداً ، ويملأونها حرباً واعتسافاً ، وإذا كل قيصر جبار يستعبد الأمصار ويخرب الديار ، فكانت الأفواه شاكية ، والعيون باكية ، تستغيث وتستجير ، والأسماع المرهفة لا تبدى ولا تعيد ، فأشفق الله على خلقه الضارعين وهو أرحم الراحمين ؛ لقد أرسل إليهم عيسى بن مريم كلمته الخارقة ، وأيده بروح القدس ، فأقبل عليهم بدين الرحمة والمحبة والوئام ، وخلص القوم من مظلمة الرومان ومرارة الحرمان

ولبث العرب فى جاهلية جهلاء ، ووثنية نكراء ، وبؤس ملحف ، وعيش مرهق ، وقد كان قيصر الطاغى على عاتق من شبه جزيرتهم ، وكسرى الباغى على عاتق آخر ، وهم يصلون فى أرضهم الجدباء نار الصحراء وشح الماء ، فكان من رحمة الله أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ؛ لقد طلع عليهم محمد بن عبد الله بهدى كبير وخير كثير ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ودانت له البداوة الأبية الشتيتة مجتمعة تحت راية القرآن ، حتى بعثت من بطاحها القفراء ، ورمالها الرمضاء ، إلى مدن العالم ورحاب الدنيا حضارة وحرية وعلماً ، فهدم مجد فارس ، وحطم عز